مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السادس رجب - رمضان ١٤٢٤ هـ سبتمبر - نوفمبر ٢٠٠٣ م

- حامية المدينة المنورة وثورة الشريف حسين
- تقاليد الخدمة والشعائر في المسجد النبوي عام ١٢٠٦ هـ/١٧٩١ م
- واجهات المباني التقليدية بالمدينة المنورة : دراسة في التجانس المعماري
- رحلة جوزيف بيتس إلى الحجاز عام ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م
- أثر العادات الغذائية في البنية الجسدية للشباب

  طلاب وطالبات المعهد الصحي بالمدينة المنورة نموذجاً

رحلة القيسي إلى المدينة المنورة

المسماة « أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب
إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب »

ليلى سعيد سويلم الجهني

محاضرة بكلية التربية بالمدينة المنورة

مقدمة

لم تنقطع مواكب الرحلات المُيممة صوب الديار الحجازية بغرض الحج ، وزيارة المدينة المنورة للصلاة في مسجد المصطفى ﷺ ، والسلام عليه وعلى رفيقيه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما . ولعل مما يلفت النظر أن المغاربة كانوا من أكثر الناس اهتماماً بتلك الرحلات وتدوينها ؛ على اختلاف الأسباب التي دفعتهم لذلك . وليس أدل على ما نقول من أن كل الرحلات التي عرضنا لها من قبل ، كانت لرحالة مغاربة بدءاً بابن جبير، ومروراً بالعبدري ، فالسبتي ، ووصولاً إلى رحلة القيسي التي سنعرض لها في هذا المبحث .

والقيسي هو : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي ، الشهير بالسراج ، الملقب بابن المليح . من أهل مراكش ، كما يصرح في ثنايا رحلته . كان ذا ثقافة وإطلاع لا بأس بهما ، ينم عن ذلك ما يرد في رحلته من أحاديث ، وأبيات شعرية ، وأخبار ، وتراجم . غلب عليه التصوف ، فاهتم في رحلته بأخبار الأولياء والصالحين وزيارة قبورهم[1] .

الرحلة

فصل ركب القيسي عن مدينة مراكش في يوم الاثنين اليوم الأخير من شهر صفر عام ١٠٤٢هـ ؛ قاصداً الديار الحجازية لأداء الحج ، ثم زيارة الحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة . وقد بدأ الرحالة في تدوين تفاصيل رحلته تدويناً مباشراً يوماً بيوم ؛ مثل ابن جبير والسبتي والعبدري ؛ غير تارك بذلك مجالاً للنسيان أو السهو .

---

(١) انظر الرحلة :ب ، ج .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

دامت الرحلة ما يربو على عامين ونصف ، مر خلالها بعدد قليل جداً من المدن والحواضر هي : القاهرة التي أقام بها ثمانية وستين يوماً ، ثلاثة عشر يوماً منها في قدومه وخمسة وخمسين يوماً في طريق عودته لدياره . ومكة المكرمة التي قضى فيها ما يقارب عشرين يوماً ، فالمدينة المنورة التي مكث فيها ثلاثة أيام . وترجع قلة المدن والحواضر التي مر بها إلى أنه قصد الحجاز سالكاً طريق الصحراء . وقد تتبع في رحلته المنازل والعيون والمناهل التي مر بها ركبه ، ووصفها وصفاً دقيقاً ذاكراً أسماءها والمسافات بينها .

صبغت الرحلة صِبغة صوفية قد تزعج قارئها في بعض الأحيان ؛ خاصة مع ما يورده من أخبار الأولياء وخوارقهم التي ربما يأبى العقل تصديقها[١]. وكنا قد أشرنا في استعراضنا لرحلة ابن بطوطة[٢] إلى أن التصوف سيغدو بدءاً من رحلته ملمحاً أساسياً بارزاً فيما يليها من رحلات ، وأرجعنا ذلك إلى ظروف العصر الذي عاش فيه ابن بطوطة . ولا يختلف الوضع بالنسبة لرحلة القيسي ، فقد شهد عصره توالي حملات البرتغاليين على المغرب . وقد أبلى السعديون الذين خرج القيسي في رحلته في عهد أحدهم[٣] بلاءً حسناً في مقاومتها ، تُوج بنصرهم في معركة وادي المخازن[٤] . واحتل التصوف ورجاله في ذلك العهد مكانة عليا في نفوس العامة الذين غلب عليهم الجهل . وليس أدل على هذه المكانة من كثرة الزوايا المنتشرة في أطراف الصحراء التي سلكها الرحالة وركبه ، فاستقبلهم مشايخها بحفاوة وكرم[٥] . كما أن الركب ذاته الذي قدم فيه القيسي كان

(١) الرحلة : ٣ ، ٥ ، ٦ .

(٢) انظر : رحلة ابن بطوطة إلى المدينة ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، العدد الخامس ص ١٢٨ .

(٣) الوليد بن زيدان بن أحمد السعدي (... - ١٠٤٥ هـ) : من ملوك دولة الأشراف السعديين بمراكش . ثار مع أخيه أحمد على أخيهما الثالث عبد الملك ، الذي بويع بمراكش بعد وفاة أبيهم في عام ١٠٣٧ هـ ؛ وانهزما بعد حروب . ظل الوليد متنقلاً في البلاد إلى أن عفا عنه عبد الملك ، فعاد إلى مراكش ، واستمال إليه رؤساء الدولة فقتلوا عبد الملك وبايعوه عام ١٠٤٠ هـ ؛ فأقام مقتصراً على مراكش وأعمالها . كان متظاهراً بالديانة ، لين الجانب ، محباً للعلماء . قتله بعض جنده غيلة في قصره بمراكش ؛ الأعلام : ١٢٠/٨ .

(٤) انظر : الرحلة : ج .

(٥) انظر : الرحلة : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تحت رئاسة أحد مشايخ التصوف هو « سيدي محمد بن الحاج الأبر ، نجل الولي الأكبر ، سيدي عبد العزيز بن سيدي محمد بن سيدي أبي عمرو »[١] ، كما يسميه القيسي . وهذه علامة جلية على نفوذ أصحاب الزوايا آنذاك ، إذ من المعتاد أن يترأس الركب قادة الجيوش وأكابر الدولة . وجل ما يعنينا هنا هو أن نؤكد على أن هذه الصِبغة الصوفية لا تقلل أبداً من قيمة الرحلة ، إذ ما علينا إلا أن نأخذ منها ما يفيد ، ونطرح عنا ما لا يفيد .

لقد عُني القيسي في رحلته ؛ نتيجة لميله إلى التصوف ؛ بتتبع قبور الأولياء والصالحين في كل ما مر به من قرى ومدن مبرراً ذلك بمقولة يعزوها إلى سفيان الثوري[٢] قال فيها : « إن لم نكن من الصالحين فإنا نحب الصالحين »[٣] . وذلك ما جعل الرحلة تمتلئ بتراجم لكثير منهم .

من جهة أخرى تكشف الرحلة عن ثقافة لا بأس بها كان القيسي يتحلى بها ، وإن كان لا يمكن مقارنتها بثقافة العبدري الموسوعية ، إذ تخلو رحلة القيسي من المناقشات والمعارضات والفوائد العلمية التي زخرت بها رحلة العبدري[٤] . ونستدل على تلك الثقافة من الكتب التي ينقل عنها القيسي في مواضع عديدة من رحلته منها : تفسير الثعلبي ، صحيح البخاري ، خلاصة الوفاء للسمهودي .

تتميز لغة القيسي بسهولتها وفصاحتها ؛ وإن لم يستنكف في كثير من المواضع عن استعمال ألفاظ عامية مغربية مثل : مدشر ، حسكة ، الحياطي[٥] . ويتعمد الرحالة السجع في مواضع كثيرة من رحلته ، بل يتكلفه في بعض .

---

(١) الرحلة : ٢ .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ -١٦١ هـ) : من بني ثور بن عبد مناة . كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى . ولد ونشأ في الكوفة ، ثم غادرها في عام ١٤٤ هـ ؛ فسكن مكة والمدينة . طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً . له مصنفات عدة منها [الجامع الكبير] و [الجامع الصغير] . كان آية في الحفظ ؛ الأعلام : ٣ / ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) الرحلة : ١٣ .

(٤) انظر : المدينة المنورة في رحلة العبدري ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، العدد الثالث ص ١٩١ .

(٥) مدشر : أي قرية ؛ حسكة : شمعدان ؛ الحياطي : ستور من حرير تغطى بها الحيطان . انظر : الرحلة ، ١٩٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأحيان كما يبدو في المقطع التالي : « ومما ينبغي لمن وفق لذلك الحج] ، وتجرد عن الأهل والوطن لحيازة الفضل هنالك ، أن يتوسل بإخلاص العمل بنية صادقة ، ويتمسك من التقوى بعروة واثقة ، فإن من أقبح القبائح ، وافضح الفضائح ، أن يقصد الهاجر ، ويخفي المهاجر الوفود على مولى كريم ، حليم عظيم ، وهو بما تكنه الضمائر خبير عليم بباطن وسخ ، وظاهر متلطخ ، فينبغي له أولاً طهارة الباطن من كل خبث ورجس ، وطهارة الظاهر من كل لوث ونحس الخ »[1] . وقد أوردنا هذا المقطع كي ندلل على ما ذكرناه عن تكلفه السجع ، إذ تكاد الرحلة كلها تمضي على هذا المنوال .

يهتم القيسي في رحلته كذلك بالشعر ؛ فيضمنها كثيراً من المقاطع الشعرية التي يتشوق فيها ناظموها لزيارة البقاع المقدسة ؛ خاصة قبره ﷺ ، بل إنه يختم الرحلة بقصيدة في مدح المدينة المنورة نظمها الشيخ محمد عبد الله البسكري ، يرد فيها :

إني لأرهب من توقع بينها فيظل قلبي موجعاً أواها
ولقلما أبصرت حال مودع إلا رثت نفسي له وشجاها

وتتبع أهمية الرحلة ، في الحقيقة ، من جانبين أولهما : تتبعها لأسماء منازل ومناهل وموارد طريق الصحراء الذي كان يسلكه الحجاج المغاربة في ذلك الوقت ، إضافة إلى تحديد المسافات بينها . وآخرهما : الصورة التي تقدمها عن الحياة الفكرية التي سادت العالم الإسلامي في الربع الثاني من القرن الحادي عشر الهجري .

تفاصيل زيارة القيسي للمدينة المنورة

أقبل القيسي على المدينة المنورة قادماً من مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج . وقد دخلها قبيل مغرب يوم الجمعة الثالث من المحرم عام ١٠٤٢هـ . ومكث فيها ثلاثة أيام ، إذ غادرها يوم الاثنين السابع من الشهر والعام نفسيهما . وما أن أقبل على مشارف المدينة حتى ترجَّل عن راحلته فمن « آداب الزائر

(١) الرحلة : ١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إذا أشرف على المدينة والبيت [الكعبة المشرفة] أن يترجل »[١] .

وكما يذكر فقد دخلها من باب المصري[٢] ، وتوجه إلى الحرم النبوي الشريف . وهناك وقف بين الفرح والتهيب ليحيي رسول الله ﷺ تحية تفيض بالمحبة والإكبار عدَّد فيها مناقبه وصفاته ﷺ ثم ختمها بأبيات يمدحه فيها منها :

يا خير من دُفِنت في القاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم[٣]

خرج القيسي بعد ذلك لزيارة مسجد قباء ، فمسجد الفتح ، ثم قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ﷺ ومن معه من الشهداء ، وأخيراً البقيع وما فيه من المشاهد . ويبدو أنه كان يبيت طوال فترة تواجده في المدينة المنورة في الحرم النبوي الشريف ، وهذا ما تشير إليه الفقرة التي يقول فيها : « ألازم ذلك الحرم الشريف ، مساءً وصباحاً ، وأنعم في روضة الجنة غدواً ورواحاً »[٤] . ويشير مبيته - وابن بطوطة من قبله - في الحرم النبوي الشريف إلى أن أبواب الحرم لم تكن توصد بعد انتهاء الصلوات كما هي الحال الآن ، بل تظل مشرعة بحيث يمكن لمن رغب من قاطني المدينة أو زائريها أو العابرين بها أن يؤمه في أي ساعة شاء من الليل سواءً كان يريد العبادة أو المبيت . وقد وصف لنا ابن بطوطة من قبل بعض ما كان الناس يفعلونه في الحرم طوال الليالي الأربع التي باتها فيه .

المدينة المنورة كما تبدو في الرحلة

(٥ - ١) يصف القيسي المدينة المنورة بالسعة ، وهي كلمة لا يمكن الاعتماد عليها وحدها لاستنتاج أن المدينة كانت مدينة كبيرة ممتدة المساحة ؛ إذ أن السعة التي يقصدها قد تكون ناتجة عن تنظيم جيد لمبانيها ، وذلك ما يؤكده وصفه إياها في موضع آخر من الرحلة بأنها « حسنة الترتيب والبناء

(١) الرحلة : ٩٦ .

(٢) ذكر في الرحلة باب القصري ، وهو تصحيف وقع فيه الناسخ ، وغاب عن المحقق ، أو خطأ مطبعي لم يستدرك . وقد ورد ذكر هذا الباب ووصفه في ص ١٢٠ من الرحلة .

(٣) هذا البيت منقوش على جدار المسجد النبوي ، قرب الحجرة النبوية .

(٤) الرحلة : ١٢٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

»[١] .فالتنظيم الجيد الذي تتوازن فيه الفراغات مع المباني بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر يعطي - بلا شك - إيحاءً بالسعة .

ويمكن أن نقول إن المدينة قد ظلت - رغم مرور أعوام كثيرة - على صورتها التي وصفتها لنا الرحلات السابقة ، ولم يطرأ عليها أي تغير عمراني ملحوظ داخل أو خارج سورها ، وإلا كان القيسي قد أشار له .

وقد يفسر لنا هذا أيضاً لماذا كادت صورة المدينة في رحلة ابن بطوطة السابقة أن تتطابق تطابقاً تاماً مع تلك التي في رحلة ابن جبير ، إذ يبدو أن ابن بطوطة قد لاحظ أن المدينة لم تختلف عما وصفه سلفه ؛ فاعتمد على ما أورده .

مازالت المدينة المنورة - كما يصف القيسي - محاطة بسور ، ونجد في رحلته أول وصف مستفيض نسبياً لهذا السور الذي كان شبه غائب في الرحلات التي تلت رحلة ابن جبير . والسور - كما يصفه - سوران يحيطان بالمدينة ، في كل واحد منهما باب يقابله آخر ، وقد صُفحت الواجهات الخارجية لتلك الأبواب بالحديد . ولكل واحد من تلك الأبواب اسم ، فأحدها باب الحديد ، ويسمى كذلك باب الشريعة ، يليه باب البقيع ، ثم الباب الشامي ، فالباب المصري .

ويبدو أن تجديداً ما لم يطرأ على سوري المدينة المنورة ، إذ يذكر القيسي أن « الذي سوَّر المدينة بسورين وأتقنها [أتقنهما] الوزير جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجواد الأصبهاني »[٢] . فلو كان ثم تجديد قد طرأ على السورين لذكره الرحالة ؛ إلا أن هذا لا يمنع أن يكون السوران قد خضعا لعمليات ترميم متفرقة بين وقت وآخر، وربما جددت أبوابه .

ولعلنا لاحظنا أن أسماء الأبواب قد تغيرت عما أورده ابن جبير في رحلته[٣] ، إذ صار هناك باب واحد يُعرف بباب الحديد وباب الشريعة ؛ في حين ذكر ابن جبير أن هناك بابين منفصلين يعرف أحدهما بباب الحديد والآخر بباب الشريعة . ولعل

(١) الرحلة : ١٢٠ .

(٢) الرحلة : ١٠٢ .

(٣) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، العدد الأول ص ١٩٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

البابين كانا متقابلين فاستأثر أحدهما بالاسمين وأُطلق على الآخر اسم مغاير . وفيما ظل باب البقيع محتفظاً باسمه الذي ورد في رحلة ابن جبير ، فإنَّا لا نجد ذكراً لباب القبلة ، ولعله أغلق أو أن اسمه تغير خاصة أن القيسي يورد في رحلته اسمين جديدين لم يردا من قبل هما : الباب الشامي ، والباب المصري .

وإن كان القيسي لا يحدد لنا مواقع تلك الأبواب حسب الجهات الجغرافية ، إلا أننا نستطيع استئناساً بأسمائها أن نحدد مواقعها . وأول تلك الأبواب باب البقيع الذي يقع جهة الشرق لأن البقيع شرق المدينة . ثم باب الشامي الذي يقع جهة الشمال إذ ربما اكتسب اسمه من وقوعه جهة بلاد الشام الواقعة شمال المدينة ، وربما كان الركب الشامي يدخل إلى المدينة عبره ومن هنا جاءت التسمية . فالباب المصري الذي يقع جهة الغرب وربما اكتسب اسمه أيضاً بسبب موازاته للديار المصرية الواقعة إلى غرب المدينة تقريباً ، أو ربما كان الركب المصري يدخل إلى المدينة عبره ومن هنا جاءت التسمية . وهكذا لا يبقى عدا باب الحديد أو باب الشريعة الذي يقع جهة الجنوب .

(٥ - ٢) أما بالنسبة للمياه في المدينة المنورة ، فهناك ثلاث سقايات قرب الحرم النبوي الشريف من جهة باب الحديد ، ونستشف من قربها من الحرم أنها تقع داخل نطاق السور الداخلي . وإن كان القيسي لا يذكر شيئاً عن العين الزرقاء إلا أننا نعتقد أن تلك السقايات الثلاث جزء من شبكتها التي كانت تغطي المدينة المنورة في ذلك الوقت . والسقايات كما يصف يُنزَل لها بدرج وماؤها عذب . وكان ابن بطوطة قد وصف لنا من قبل واحدة من سقايات العين الزرقاء الواقعة قرب باب السلام أحد أبواب الحرم ، ويبدو أنها واحدة من السقايات الثلاث السابقة .

وإن كانت السقايات السابقة تقع داخل نطاق سور المدينة ، فإن ثم سقاية أخرى يذكر القيسي أنها تقع قرب مشهد حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، أي بعيدًا عن المدينة القديمة ، وقريبًا من جبل أحد ؛ حيث ينتهي مجرى العين الزرقاء .

ويذكر القيسي في رحلته عدداً من آبار المدينة . أولها : آبار علي التي تقع خارج المدينة على مسافة خمسة أميال منها . وهي ثلاث آبار يحيط بها فناء واسع ، كثيرة المياه ، ولها درج من أعلاها إلى أسفلها . وقد اختلف وضع الآبار عما وصفه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العبدري من قبل اختلافاً واضحاً[١] ، إذ صارت البئر الواحدة ثلاثاً ، ولحقت العناية بناءها فلم يعد رسوماً داثرة ؛ بل صارت محاطة بفناء واسع ، وقد شيدت الآبار نفسها تشييداً جيداً . ثانيها : البئر القائمة في صحن مسجد قباء أمام بابه ، وهي كبيرة عذبة الماء وقد امتدت منها سقايات تحمل الماء إلى المدينة المنورة . وهذه البئر هي نفسها التي ذكرها ابن جبير[٢] ، وأشار لها السبتي[٣] باعتبارها عيناً من عيون المدينة . ولعل مما يلفت النظر أن الرحالة الثلاث لم يسموا هذه البئر ، واكتفى كل واحد منهم بالإشارة إليها أثناء حديثه عن مسجد قباء . فهل يعني ذلك أن البئر لم يكن لها اسم ؟ أم أن الرحالة لم يُعنَوا بمعرفة اسمها مكتفين من ذلك بشهرة موقعها وسهولة الاستدلال عليه ؟

آخرها : بئر أريس الواقعة قرب مسجد قباء على الطريق بينه وبين المدينة . وقد جُدِّد بناؤها عند تجديد بناء مسجد قباء عام ٦٧١هـ ؛ فرفع جدارها الخلفي نحو ثلاثة أذرع ، ولها درج .

ويذكر القيسي كذلك عيناً منسوبة لرسول الله ﷺ ، ويصعب في الحقيقة تحديد موقعها من خلال وصفه حيث يقول : « وبين المدينة المكرمة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبي ﷺ »[٤] . فالجملة كما يظهر غامضة ؛ إذ ليس هناك ما يوضح أي طريق يقصد ؟ وبين المدينة وبين أي موضع ؟ ولعل العين تقع خارج سور المدينة على مسافة غير بعيدة منه . ويبدو أن هذه العين هي نفسها التي ذكرها ابن جبير[٥] من قبل إذ يتطابق وصفه لها مع وصف القيسي . فالعين يحيط بها بنيان مستدير ، ويقع منبعها في وسطه ، ومن تحت البناء سقايتان مستطيلتان ، يحجز بين كل واحد منهما وبين المنبع حاجز ، ويُهبَط إليهما بدرج

(١) انظر : رحلة العبدري إلى المدينة ، مصدر سابق ١٩١ .

(٢) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مصدر سابق ١٩٣ .

(٣) انظر : رحلة السبتي إلى المدينة ، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ، العدد الثاني ص ١٨٤ .

(٤) الرحلة : ١٢٠ .

(٥) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مصدر سابق ١٩٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ذي خمس وعشرين درجة . وماء هذه العين كما يذكر القيسي ثرٌّ « لو ورده أهل الأرض لكفاهم »[١] .

على صعيد آخر فإن المدينة المنورة محاطة ببساتين نخل أعظمها الواقعة إلى جهتي الجنوب والشرق ؛ أي قباء والعوالي . ويُشَكِّل النخل بين المدينة وقباء ؛ لكثرته ؛ حدائق متصلة على طول الطريق .

(٥ - ٣) يفصل بين رحلتي القيسي والسبتي ما يربو على ثلاثة قرون ونصف قرن ، غير أن كل هذه الأعوام الطويلة لم تكد تغير شيئاً في الصورة التي وصف بها السبتي استقبال أهل المدينة المنورة لركبه صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة عام ٦٨٤هـ . فها هو القيسي قبيل مغرب يوم الجمعة الثالث من المحرم عام ١٠٤٢هـ ، يعيدنا إلى الصورة ذاتها وهو يصف دفء وبشاشة استقبال أهل المدينة لركبه ؛ إذ خرجوا لملاقاة الزائرين « بالتعظيم والإجلال والترحيب والإقبال »[٢] . ويعزو القيسي طيب شمائلهم إلى مجاورتهم المصطفى وتأدبهم بأدبه وتخلقهم بخلقه الكريم .

ولم يكتفِ أهل المدينة بالخروج لاستقبال القيسي وركبه ، إذ نراهم وقد خرجوا في وداع الرحالة ومن معه باكين خائفين عليهم من غوائل الطريق . وسيكون وداعهم هذا ، وما أظهروه من التعلق والألفة السريعة سبباً من أسباب حزن القيسي وألمه عند مفارقة المدينة .

(٥ - ٤ - أ) خضع الحرم النبوي الشريف ؛ خلال الفترة التي تلت رحلة ابن بطوطة ؛ لإصلاحات وترميمات أعظمها تلك التي أمر بها السلطان قايتباي[٣] ، وطالت سقفه وبعض أعمدته ومنارته الشرقية . وقد بدأت هذه الإصلاحات عام ٨٧٩هـ ، وتوقفت لفترة لنفاد المال ، لكنها استؤنفت مجدداً عام ٨٨١هـ ؛ وانتهت في شهر شوال منه. وفي الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر

(١) الرحلة : ١٢٠ .

(٢) الرحلة : ٩٦ .

(٣) قايتباي أبو النصر سيف الدين المحمودي الأشرفي الظاهري (٨١٥ - ٩٠١هـ) : من ملوك الجراكسة . خدم الظاهر جقمق ، ثم أعتقه . ولي السلطنة في عام ٨٧٢هـ . كانت مدته حافلة بالعظائم والحروب . كان متقشفاً ، شجاعاً ، وله اشتغال بالعلم والمطالعة . أبقى كثيراً من آثار العمران في مصر والحجاز والشام : الأعلام : ٥/١٨٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

رمضان عام ٨٨٦هـ ، احترق الحرم جراء صاعقة ضربت هلال المنارة الشرقية المعروفة بالرئيسية . وقد استولت النيران على سقف الحرم ومخازنه وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والمصاحف ، وذاب رصاص القبة التي تعلو الحجرة الشريفة ، واحترقت أخشابها ، ولم يسلم من الحريق غير ما سارع الحاضرون آنذاك بإخراجه من موجودات الحرم ، إضافة إلى القبة المبنية في صحن الحرم التي تحوي ذخائره ، وسبق لهذه القبة أن سلمت من النار في الحريق الأول[١] . وما أن بلغ السلطان قايتباي خبر الحريق حتى أمر بتجديد عمارة الحرم ، وقد استمرت أعمال البناء حتى أواخر شهر رمضان عام ٨٨٨هـ[٢] .

ورحلة القيسي أول الرحلات المتوفرة بين أيدينا التي تصف لنا تلك العمارة . ولا يكتسب ما ورد فيها عن الحرم أهميته من هذه النقطة فحسب ، إذ أن القيسي عُني في وصفه بأمور لم يُعن بها من سبقه منها : النصوص المكتوبة على جدران الحرم ومحرابه ومنبره .

والحرم كما يصفه مستطيل طوله ثلاثمائة ذراع وعرضه مائتان . وللأسف لم يتوفر لنا من خلال الرحلات السابقة معلومات عن طول الحرم وعرضه كي يمكننا تتبع قدر الزيادة الطارئة عليهما ، ما عدا رحلة ابن جبير التي استخدم فيها الخطوة مقياساً . غير أننا نشير هنا إلى أن آخر توسعة طرأت على الحرم كانت تلك التي أمر بها الخليفة العباسي المهدي في عام ١٦٥هـ . ولم تعقبها أي زيادة ، وانحصرت التجديدات التي تلتها في إصلاحات وترميمات لحقت سقفه أو أروقته أو أعمدته أو جدرانه ، حتى جاءت توسعة قايتباي - وهي التوسعة التي أدركها القيسي ووصفها في رحلته - فزيد في الجانب الشرقي من الحرم مما يلي الحجرة الشريفة بمقدار ذراعين وربع . وقد لا تعتبر زيادة كبيرة ، غير أنها خدمت في التغلب على الضيق الناتج عن إلغاء العمود الواقع أمام المحراب ، وبناء قبة كبيرة - عوضاً عنه - على دعائم من الحجر وعقود من الآجر[٣] .

---

(١) انظر : وفاء الوفا : ٦٣١/٢ -٦٣٥ .

(٢) انظر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة : ٢ / ٣١٥ - ٣١٧ .

(٣) انظر : تاريخ المسجد النبوي ، ٥٢ ؛ وفاء الوفا : ٦٤٠/٢ ؛ المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري : ٨٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويتوسط الحرم صحن مفروش بالرمل والحصى ، تحيط به أروقة من جهاته الأربع ، وقد زرعت فيه نخلة واحدة عدد عراجينها سبعة عراجين[١] . ولعل من الطريف ملاحظة تباين المعلومات التي وردت عن النخل المزروع في صحن الحرم في الرحلات السابقة . ففي حين لم يذكر السبتي وابن بطوطة شيئاً عنه ، قدَّر ابن جبير عدده بخمس عشرة نخلة ، ووصفه العبدري بقوله : نخلات صغار دون أن يحدد عدده ، وهاهو القيسي يحدثنا عن نخلة واحدة لها سبعة عراجين . والحقيقة أن الأمر لا يتعلق بالنخل بل باعتياد وجوده في صحن الحرم ، حتى أن إعادة بناء الحرم لم تؤثر عليه ؛ فظل وسيظل موجوداً إلى وقت متأخر كما سنرى فيما بعد .

يهتم القيسي في رحلته بتقدير عدد أعمدة الحرم التي بلغت كما يذكر ثلاثمائة عمود . ويوجد في باطن أحد تلك الأعمدة الجذع الذي حنَّ للرسول ﷺ . ويورد القيسي هذا الخبر بصيغة متشككة يبدؤها بكلمة يقال ، وينهيها بقوله والله أعلم . وقد ورد خبر هذا الجذع من قبل لدى ابن جبير[٢] وابن بطوطة . كان الأول منهما متشككاً كذلك في صحته إذ سبقه بكلمة يقال ، فيما كان الأخير أكثر ثقة إذ أشار إليه بقوله : « واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن إلى رسول الله ﷺ »[٣] . ويخبرنا القيسي أن الأعمدة القائمة بين الروضة والمنبر كُسيتْ بقطع الفسيفساء الخضراء تمييزاً لها عن غيرها .

أما المحراب فقد كُتب في أعلاه بماء الذهب الآية الكريمة : ﴿ التَّائبونَ العَابِدونَ الحَامِدونَ السَّائحونَ الرَّاكعونَ السَّاجدونَ الآمِرونَ بِالمَعروفِ وَالنَّاهونَ عنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظونَ لِحُدودِ اللّهِ وَبَشِرِ المُؤمنينَ ﴾[٤] . فيما أشار العبدري - من قبل - في رحلته إلى أن المحراب كان خالياً من الزينة[٥] . ويصف القيسي المنبر الذي شاهده ، وقد صُنعت قاعدته من الرخام وكُسي بخشب الصندل

(١) العراجين : مفردها عُرْجُون أصل العذق الذي يعوَجُّ ويبقى يابساً على النخل .

(٢) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مصدر سابق ، ص ١٩٣

(٣) رحلة ابن بطوطة : ١٣٥ .

(٤) التوبة : ١١٢ .

(٥) انظر : رحلة العبدري إلى المدينة ، مصدر سابق ، ص ١٩١

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأحمر والأبيض والأصفر . وكُتب على جانبه الأيمن الآية الكريمة : ﴿ تَرَى الظَّالمِينَ مُشْفقِينَ مِما كَسبوا وَهُو وَاقِعٌ بِهم وَالَّذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ فِي رَوضَاتِ الجَنَّاتِ لَهم مَا يشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِم ذَلك هُو الفَضْلُ الكَبير ﴾[١] ، أما الجانب الأيسر فقد كتب عليه الحديث النبوي الشريف الذي يرويه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ مَا بَيْنَ بيتي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي ﴾[٢] . فيما كتب على بابه الذي يدخل منه الإمام الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَكُم تَذَّكَرونَ ﴾[٣] . وكما يصف القيسي فإن الكاتب قد عرَّق نون تذكرون في رخام المنبر الأبيض من الجهة اليسرى؛ أي جعلها منتهية بحليات زخرفية تشبه عروق الأشجار . أما الجهة الخلفية من المنبر فقد كتب عليها : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : يَا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَومِ الجُمْعَةِ فَاسْعَوا إلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾[٤] .

ويشير القيسي إلى أن نصف جدار القبلة الأسفل قد كسي برخام متراكب بعضه فوق بعض متباين الهيئة واللون . أما نصف الجدار الأعلى فقد وشي بماء الذهب ، وزين بزخارف لأشجار ذات غصون . وتشبه بقية الجدران جدارَ القبلة في زخارفها وتمويهها بالذهب وإن كانت أقل منه زينة وزخرفة . ويذكرنا هذا بما ورد من قبل في رحلة ابن جبير[٥] . وتمتد الكتابة والزخارف حتى سقف الروضة ، حيث كتب على سقفها الممتد ناحية الحجرة الشريفة حتى المنبر

---

(١) الشورى : ٢٢ .

(٢) وقع خطأ في الكتاب المطبوع لرحلة القيسي في صياغة الحديث يبدو أنها ناتجة عن سهو أو خطأ من الطباعة . والحديث متفق عليه ، وصيغته كما يلي : عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ : (قَالَ مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي) البخاري : كتاب الجمعة ، رقم الحديث : ١١٢١ ؛ مسلم : كتاب الحج : ٢٤٦٥ .

(٣) النحل : ٩٠ .

(٤) الجمعة : ٩ .

(٥) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مصدر سابق ١٩٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

قصيدة ذات خمسة عشر بيتاً يخاطب ناظمها زائرَ قبره ﷺ ، مبيناً له ما عليه أن يفعل عندما يقف إزاء القبر ، ثم يوجه خطابه إلى الرسول ﷺ سائلاً إياه أن يأخذ بيده ، ويشفع له ولأهله وعترته جاء في بعض أبياتها :

لمهبط الوحي حقاً ترحل النجب وعند هذا المرجى ينتهي الطلب

به تحط السائلون وما لسائل الدمع لا يمضيه ما يجب

وأروقة الحرم كلها مفروشة بالرمل عدا الروضة التي فُرشت بحصائر من فوقها بُسُط « تذهل البصائر »[1] لجمال ألوانها ، ودقة صناعتها . وتعيدنا هذه الإشارة إلى أخرى وردت في رحلة السبتي[2] ذكر فيها أن الحرم كله مفروش برمل أحمر ما عدا ثلاثة مواضع استثناها ومررنا عليها في حينه .

ويوجد قرب المحراب من الناحية الشرقية خزانتان كبيرتان تحويان كتباً ومصاحف موقوفة على الحرم . وسبق لابن جبير أن أشار إلى وجود خزانتين مثل هاتين بين الحجرة الشريفة والروضة .

وللحرم النبوي الشريف ، كما يذكر القيسي ، أربعة أبواب ؛ اثنان منها في ناحية الغرب يسمى أحدهما : باب السلام ، والآخر : باب الرحمة . وبابان آخران ناحية المشرق ، أحدهما : باب جبريل ، أما الآخر فباب النساء . ويشير كذلك إلى بابين آخرين هما : باب المنية و باب الرخاء ، غير أنه يورد معلومات غامضة غير دقيقة عنهما ، ويبدو أنهما من ضمن أبواب الحرم المغلقة . ومن الملاحظ أن أبواب الحرم احتفظت بأسمائها نفسها التي وردت في رحلة العبدري . وفيما تكرر ذكر بابي الرحمة وجبريل في ثلاث رحلات من بين الرحلات التي استعرضناها حتى الآن - ابن جبير ، فالعبدري ، ثم القيسي - نجد أن اسم باب السلام ظهر لأول مرة بدءاً من رحلة العبدري ، ولم يغب عما تلاها .

أما مآذن الحرم فيبلغ عددها خمساً توزعت على أركان الحرم . وتعرف المئذنة الملتصقة بجدار الحجرة الشريفة من الخارج بالمئذنة الرئيسية ، وهي التي يرتقيها المؤذن عند الأذان ، وتحتها يبيت القيم طوال شهر رمضان الكريم .

---

(١) الرحلة : ١٠١ .

(٢) انظر : رحلة السبتي ، مصدر سابق ١٨٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ونلاحظ أن مآذن الحرم قد زادت مئذنتين عما ورد في رحلتي ابن جبير والعبدري . فقد أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] بعدد من الإصلاحات التي لحقت الحرم كان من بينها إنشاء مئذنة في الجهة الجنوبية الغربية وكان ذلك في عام ٧٠١هـ . أما المئذنة الأخيرة فقد أنشئت أثناء أعمال العمارة التي أمر بها السلطان قايتباي عقب حريق الحرم الثاني ، وذلك عندما قاربت أعمال البناء على الانتهاء في عام ٨٨٩هـ ، إذ اقيمت مئذنة صغيرة ملاصقة للجدار الغربي للحرم عرفت بمئذنة الرحمة[٢] ، لقربها من باب الرحمة الذي يقع في الجدار الغربي من الحرم .

وثم سدنة وحراس للحجرة الشريفة لا يسترسل القيسي في الحديث عنهم ، بل يشير إليهم إشارة عابرة عند وصفه للهدية التي بعثها السلطان الوليد بن زيدان . وكان الخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء وذوو اليسار يحملون معهم عند زيارتهم للمدينة المنورة ، أو يبعثون مع الأرْكُب[٣] الذاهبة إليها هدايا للحجرة الشريفة جُلُّها قناديل من الذهب والفضة ، إضافة إلى مصاحف مكتوبة بماء الذهب ، وزيت للمصابيح ، وشموع ، ودراهم وغيرها من الأشياء النفيسة[٤] .

ويصف لنا القيسي في رحلته هدية السلطان الوليد وصفاً يشير إلى مبلغ فخامتها . وتتكون من أربعة شمعدانات ؛ اثنان منها من الذهب ، وزن كل واحد منهما أربعة أرطال ، وقد رُصعا بالزبرجد[٥] ، وكتب في قاعدة أحدهما البيتان التاليان بلون أخضر زاهٍ :

متع لحاظك في محاسن منظري ... لترى عجائب مثلها لم يعهد
قمر على غصن الزبرجد جاثم ... ينبيك عن حب الوليد لأحمد

(١) الناصر محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي ، أبو الفتح (٦٨٤ - ٧٤١ هـ) : من كبار ملوك الدولة القلاوونية . له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال . ولي السلطنة في عام ٦٩٣هـ ، وهو صبي فخلع وحبس في قلعة مصر نحواً من ٢٠ عاماً ، أظهر بعدها عزمه على الحج ، فلما بلغ الكرك أعلن نيته الإقامة فيها ، ثم زحف بعد عام إلى مصر وقاتل الملك المظفر ، وقتله خنقاً ، وامتلك قياد الدولة فترة تجاوزت ٣٢ عاماً ، كانت له فيها سير وأنباء كثيرة ؛ الأعلام : ١١/٧ .

(٢) انظر : المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري ، د. مصطفى لمعي : ٨٠ -٨١ ، ٨٥ .

(٣) الأركب جمع لاسم الجمع ركب ، ويعني الركائب من الإبل والخيل .

(٤) انظر : وفاء الوفا : ٢ / ٥٨٤ ، ٥٨٥ — ٥٨٦ .

(٥) الزبرجد حجر كريم يشبه الزمرد أشهره الأخضر ، والكلمة فارسية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكما نلاحظ فإن البيتين قد نُظما ليكتبا على الشمعدان ، ويثبتا اسم باعث الهدية .

أما الآخران فمن الفضة الخالصة ، وزن كل واحد منهما عشرة أرطال . إضافة إلى صندوقين مملوءين بشمع العنبر ، وعشرة آلاف قطعة من الذهب المطبوع . وقد أرفقت الهدية برسالة وقصيدة يبدو أنها من نظم السلطان الوليد نفسه « تزدهي بأفنان فنون الثناء ، تشنف الأسماع ، من محاسن الإبداع »[١] كما يذكر القيسي .

وقد فُتح باب الحجرة الشريفة صبيحة اليوم الرابع من المحرم عام ١٠٤٢هـ - اليوم الثاني لقدوم الركب إلى المدينة - فحمل قائد الركب الهدية الفاخرة والرسالة والقصيدة ودخل ، ثم وضعها هناك بعد أن فض الرسالة والقصيدة وقرأهما بحضرة جمع ممن كانوا في الحرم آنذاك ؛ ثم دفع لحراس الحجرة وسدنتها ما خُصص لهم من مال . وكان شمع العنبر يوضع كل ليلة ؛ كما يخبرنا القيسي ؛ في الشمعدانات الأربعة ، ويوقد من المغرب حتى صباح اليوم التالي ناشراً في المكان من حوله نوره ، وعبقه « يصعد مع جوانب الروضة عصار نشره ، ويحيط بأرجائها أرج عطره »[٢] .

وإن كان لنا أن نختم استعراضنا لوصف القيسي لعمارة الحرم النبوي الشريف ، فإنّا نشير إلى أن ما قدمه من معلومات سيساعدنا بلا شك عند مقارنتها بما ورد قبلها ، وما ورد بعدها على تتبع تطور عمارة المسجد النبوي .

(٥ - ٤ - ب) قصد القيسي مسجدين اثنين فقط من مساجد المدينة المنورة الأخرى ، هما :مسجد قباء ، ومسجد الفتح . خرج إلى الأول منهما في اليوم الثاني لقدومه إلى المدينة . وقد زاره لأن النبي ﷺ كان « يأتيه راكباً وماشياً »[٣] . والمسجد كما يصفه حسن البناء ، مربع الشكل ، طوله مائة وعشرون خطوة ، وعرضه مثل ذلك . وله باب واحد يقع جهة الغرب ، ومئذنة عالية تُرَى

(١) الرحلة : ١٠٣ .
(٢) الرحلة : ١٠٣ .
(٣) الرحلة : ١٠٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من مسافة بعيدة ، يتوسطه صحن فيه مبرك ناقته ﷺ وقد علت المبرك قبة من خشب يحرص الناس على الصلاة فيها .

وفي صحن المسجد أيضاً من جهة القبلة - الجهة الجنوبية - محراب مبني فوق موضع ركوبه ﷺ ، كما يرد في الرحلة . ولا يوضح القيسي إن كان المحراب من خشب أو غيره ، إلا أنه ينقل لنا ما كتب في أعلاه : « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ﴿ لَمَسجِدٌ أُسِسَ عَلَى التَّقْوى مِن أولِ يَومٍ أحَقُّ أنْ تَقُومَ فِيه فِيهِ رِجَالٌ يُحبُّونَ أنْ يَتَطهَرُوا وَاللّهُ يُحِبُّ المُطَّهِرينَ ﴾[1] : هذا مقام النبي ﷺ »[2] . وقد جُدِّد المسجد في عام ٦٧١هـ .

لقد وصف ابن جبير[3] وابن بطوطة[4] في رحلتيهما اللتين عرضنا لهما من قبل مسجدَ قباء . وتكاد أن تتطابق صورته في تينك الرحلتين مع الواردة في رحلة القيسي ، حيث ظل المسجد محتفظاً بسماته الأساسية . فهو مربع الشكل ، ذو مئذنة عالية ، وباب يقع في الجهة الغربية ، يتوسطه صحن فيه أثران يُنسبان للرسول ﷺ اتفق الرحالة الثلاثة على أن أولهما : مبرك ناقته ، أما الآخر : فقال ابن جبير وابن بطوطة أنه أول موضع ركع فيه رسول الله ﷺ ؛ فيما أورد القيسي أنه موضع ركوبه ﷺ . ويبدو أن القيسي قصد ركوعه فصُحِّفَت الكلمة أثناء نسخ الرحلة إلى ركوبه . والحقيقة أن كلمة ركوعه أقرب إلى منطق الأشياء ، ويؤيد ذلك الكلام المكتوب على المحراب الذي نقله لنا القيسي : هذا مقام النبي ﷺ ، فكلمة مقام تعني مصلى الإمام . وإضافة إلى ما سبق فإن المبرك الذي كان في رحلة ابن جبير مسيجاً بجدار قصير ، ظُلل في رحلة القيسي بقبة علته كالظلة ، ولعلها أحدثت عند تجديده .

أما المسجد الآخر الذي قصده القيسي فكان مسجد الفتح وذلك عقب عودته من زيارة مسجد قباء . وليس ثم وصف لبناء هذا المسجد ؛ وكل ما يذكره عنه أنه تَنفَّل ومن معه فيه . ويقع القيسي في الخطأ نفسه الذي وقع فيه

---

(١) التوبة : ١٠٨ .

(٢) الرحلة : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) انظر : المدينة المنورة في كتابات الرحالة العرب ، مصدر سابق ١٩٣ .

(٤) انظر : رحلة ابن بطوطة إلى المدينة ، مرجع سابق ١٢٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ابن جبير وابن بطوطة من قبل عندما اعتقدا أن المسجد سُمي باسمه لنزول سورة الفتح فيه . وكنا قد بيَّنا وجه الخطأ في هذا الاعتقاد عند مرورنا على هذه النقطة في رحلة الأول منهما .

يشير القيسي كذلك إشارة عابرة إلى مسجدين آخرين هما : مسجد علي بن أبي طالب ﷺ ، ومسجد سلمان الفارسي ﷺ . ويظهر من حديثه عنهما أنه اكتفى بمشاهدتهما من بعيد دون أن يخصهما بزيارة . ويذكر أنهما يقعان في الطريق بين المدينة المنورة ومشهد حمزة بن عبد المطلب ﷺ . والغريب في هذه الإشارة أن هذين المسجدين ومسجد الفتح سالف الذكر تقع كلها على الجهة الغربية من سفح جبل سلع ، فإذا كان القيسي قد خرج لزيارة مسجد الفتح فقد كان من الأولى أن يشير إلى المسجدين في حينها . إنَّنا نتساءل إن كان القيسي يقصد بمسجد الفتح مسجداً آخر يقع في الطريق بين المدينة وقباء . ويستند هذا التساؤل إلى سببين لا يخلوان من وجاهة كما نظن ، أولهما : أنه يذكر أنه زاره عند عودته من قباء فهناك عدد من المساجد الواقعة قرب مسجد قباء منها مثلاً : مسجد الجمعة ، ومسجد عتبان ، ومسجد الفضيخ ؛ فربما مرَّ بأحدها والتبس عليه اسمه ، أو قيل له أنه مسجد الفتح . آخرهما : أنه ، حسبما نعتقد ، كان يخرج لزيارة تلك الأمكنة دون دليل أو مرشد مكتفياً برفقة من معه من ركبه ، ولا غرابة والأمر كذلك أن يَهِمَ في تحديد بعض المواقع أو تسميتها .

(٥ - ٥) عُني القيسي أثناء وجوده في المدينة المنورة كذلك بزيارة مشاهدها وآثارها المشهورة ، فبدأ بزيارة مشهد حمزة بن عبد المطلب ﷺ ومن معه من شهداء معركة أحد . وعلى المشهد كما يصف بناء عظيم فيه قبة دفن تحتها حمزة ﷺ ومعه مصعب بن عمير[1] ، وشماس بن عثمان[2] ، وعبد الله بن

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف (... - ٣ هـ) : صحابي شجاع من السابقين إلى الإسلام .أسلم في مكة وكتم إسلامه . هاجر إلى الحبشة ثم المدينة ، وكان أول من جمع الجمعة فيها . عُرف بالمقرئ . شهد بدراً ، وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد وفيه وفي أصحابه نزلت الآية : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ ؛ الأعلام : ٧ / ٢٤٨ .

(٢) شماس بن عثمان بن الشريد المخزومي (٣١ ق.هـ - ٣ هـ) : صحابي من الأبطال ، شهد بدراً ، وقتل يوم أحد . شبهه الرسول بالترس ؛ لأن الرسول ﷺ كان لا يرمي ببصره يميناً أو شمالاً إلا رأى شماساً أمامه يذب عنه بسيفه ، فلما غشي رسول الله ﷺ ترَّس بنفسه دونه حتى قتل ، ورثاه حسان ؛ الأعلام : ١٧٥/٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جحش[١] ﷺ في قبر واحد . وأمام هذه القبة قبة أخرى تقابلها عُلِّق فيها قوس عربية وسيف ودبوز [ولعله دبوس[٢]] ، يقال إنها لحمزة ﷺ . وهذه أول مرة يرد فيها ذكر هذه الآثار المنسوبة إلى حمزة ﷺ . ولا يمكن في الواقع التسليم بصحة نسبتها إليه ﷺ ، إذ لم يرد بشأنها شيء في الرحلات السابقة . فلو كانت موجودة لذكرها الرحالة الذين زاروا مشهد حمزة ﷺ ؛ خاصة ابن جبير وابن بطوطة مع اعتنائهما بتتبع كثير من الآثار التي مرا عليها . ولعل في ذكر القيسي لخبر هذه الآثار بصيغة التضعيف دليل على تشككه في صحة نسبتها .

ويذكر القيسي في معرض حديثه عن سور المدينة المنورة وأبوابها مشهد مالك بن سنان ﷺ[٣] الذي يقع قرب باب البقيع داخل حدود السور الخارجي ملاصقاً لجداره . ويبدو أن القبر كان محاطاً بفناء إذ يصفه القيسي بالروضة ، ويذكر أن الناس يزورونه ويتبركون به[٤] . ويبدو أن الرحالة قد وهم في تسمية الباب الذي يقع بقربه مشهد مالك بن سنان ، فذكر أنه يقع قرب باب البقيع ؛ في حين أن المشهد كما ورد في كثير من المصادر يقع قرب الباب المصري في الجهة الغربية من المدينة المنورة[٥] .

زار القيسي كذلك مشاهد البقيع ، وفي حين وصف بناء بعضها اكتفى فيما بقي بسرد أسماء أصحابها مع ترجمة مختصرة لكثير منهم . وأول من يبدأ به صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، فمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وإبراهيم بن النبي ﷺ وعلى قبره قبة بيضاء . يليه مشهد دفنت فيه بنات الرسول ﷺ ، فمشهد العباس ﷺ ، وبقربه الحسن بن علي رضي الله عنهما ؛ والقبران

---

(١) عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي (... - ٣ هـ) : صحابي من السابقين إلى الإسلام . هاجر إلى الحبشة ثم المدينة . كان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ أخو زينب بنت جحش . قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قبر واحد ؛ الأعلام : ٧٦/٤ .

(٢) الدبوس : المقمعة وهي عصا من خشب أو حديد في رأسها شيء كالكرة ، والكلمة فارسية ؛ انظر : مختار الصحاح .

(٣) مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة الأنصاري الخدري ، والد أبي سعيد الخدري . شهد أحداً واستشهد بها . **مص الدم عن وجه رسول الله عندما أصيب يوم أحد ، ثم ازدرده ، فقال : من مس دمه دمي لم تمسسه النار ؛** الإصابة :٣٤٥/٣ – ٣٤٦ ، البداية والنهاية : ٢٤/٤ .

(٤) التبرك لا ينال بزيارة القبور ، إذ تزار القبور للعبرة والعظة والدعاء للموتى .

(٥) انظر : الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز :٣٨٠ ؛ وفاء الوفاء :٩٢٣/٣ ؛ رحلة العياشي : ٩٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مرتفعان عن الأرض عليهما ألواح مصفحة بالصُّفر ومثبتة بمسامير . وقبر إبراهيم ابن النبي ﷺ على الهيئة نفسها . وكان ابن جبير وابن بطوطة قد وصفا هذين المشهدين - مشهدي : إبراهيم ابن النبي ﷺ والعباس والحسن بن علي رضي الله عنهما - بالهيئة نفسها . وكما يذكر القيسي فقد دُفن مع العباس والحسن رضي الله عنهما في مشهدهما : جعفر الصادق[١] ، ومحمد الباقر[٢] ، وزين العابدين[٣] . وهناك مشهد محمد بن الحنفية[٤] ، ثم مشهد عثمان بن عفان ﷺ ، وبقربه مشهد فاطمة بنت أسد ، فنافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم[٥] ، ثم حليمة السعدية[٦] مرضعة رسول الله ﷺ ؛ وهذا خبر غريب . يجيء بعد ذلك مشهد عقيل بن أبي طالب ﷺ ، فمشهد أمهات المؤمنين أزواج رسول الله . وزار القيسي كذلك قبر الولي - كما ينعته - الصالح عبد الكريم بن محمد

(١) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، أبو عبد الله ، الملقب بالصادق (٨٠ - ١٤٨ هـ) : سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية . ولد وتوفي بالمدينة . كان من أجلاء التابعين ، وله منزلة رفيعة في العلم . أخذ عنه جماعة ، منهم الإمامان أبو حنيفة ومالك . كان جريئاً صداعاً بالحق على الخلفاء . له رسائل مجموعة في كتاب ؛ الأعلام : ١٢٦/٢ .

(٢) محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين ، أبو جعفر (٥٧ - ١١٤ هـ) : خامس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية . كان ناسكاً عابداً ، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال . ولد بالمدينة ، وتوفي بالحميمة ، ودفن بالمدينة ؛ الأعلام : ٦ / ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو الحسن الملقب بزين العابدين (٣٨ - ٩٤ هـ) : رابع الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع . ولد وتوفي في المدينة . قال بعض أهل المدينة : ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت زين العابدين ؛ الأعلام : ٤ ٢٧٧ .

(٤) محمد بن علي بن أبي طالب ، أبو القاسم ، المعروف بابن الحنفية (٢١ - ٨١ هـ) : أخو الحسن والحسين ، أمه خولة بنت جعفر الحنفية ، ينسب إليها تمييزاً له عن أخويه . كان واسع العلم ، ورعاً ، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة ، ولد وتوفي بالمدينة ، وقيل خرج إلى الطائف هارباً من عبد الله بن الزبير ، فمات هناك ؛ الأعلام : ٢٧٠/٦ .

(٥) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني (... - ١٦٩ هـ) : أحد القراء السبعة المشهورين ، وإليه انتهت رئاسة القراءة بالمدينة . أقرأ الناس نيفاً وسبعين عاماً . كان صبيح الوجه ، حسن الخلق ، فيه دعابة . أصله من أصبهان . توفي في المدينة ؛ الأعلام : ٥/٨ .

(٦) حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث السعدي البكري الهوازني (... - بعد ٨ هـ) : مرضعة رسول الله ﷺ . كانت زوج الحارث بن عبد العزى السعدي من بادية الحديبية . قدمت مع زوجها بعد النبوة فأسلما . جاءت النبي ﷺ يوم حنين فقام إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه . لها رواية عن النبي ﷺ ؛ الأعلام : ٢٧١/٢ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الكبير بن أبي عمرو القسطار ، أحد شيوخ الطرق الصوفية وهو آخر من يذكره ممن زار قبورهم في البقيع .

أما بالنسبة لآثار المدينة المنورة فإن القيسي لم يزد على ذكر الدور التي ذكرها ابن جبير وابن بطوطة في رحلتيهما من قبل ، وأولها دار أبي بكر الصديق ﷺ التي تقع قرب الحرم النبوي الشريف في الجهة الشرقية ، تليها دار عمر بن الخطاب ﷺ ، ثم دار ابنه عبد الله ﷺ . وهناك دار أبي أيوب الأنصاري التي تقع قرب مسجد قباء في الجهة الجنوبية . وبالقرب من مسجد قباء كذلك داران تنسب أولاهما إلى عائشة رضي الله عنها ، والأخرى لأبي بكر الصديق ﷺ . وقد غاب كما لاحظنا ذكر داري : عمر بن الخطاب وفاطمة بنت رسول الله اللتين وردتا في رحلتي ابن جبير وابن بطوطة . ولا ندري بعد كل هذا الوقت الطويل إن كانت تلك الدور مازالت قائمة حقاً أم أن الرحالة نقل عمن سبقه ؛ خاصة مع ما ذكرناه من قبل حول دار أبي بكر الصديق المجاورة للحرم التي دخلت ضمن توسعة عمر بن الخطاب ﷺ ، ورغم ذلك يشير إليها الرحالة بدءاً من ابن جبير ومروراً بابن بطوطة وانتهاءً بالقيسي كما لو كانت قائمة . هذا عدا عن أن واحداً من الرحالة لم يصف وضع هذه الدور فلا ندري إن كانت ما تزال قائمة أم أنها تهدمت لطول العهد فغدت أطلالاً خَرِبَة ؟!

(٥ - ٦) أقام القيسي في المدينة المنورة ثلاثة أيام . كان قد دخلها سعيداً بوصوله إلى :

بلاد بها الحصباء در وتربها عبير وأنفاس الرياح شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح النسيم وهو عليل

غير أن سعادته شابتها غصة إدراكه أن وصوله إليها سيعقبه الرحيل عنها . والحقيقة أن ليس ثم ما نختم به هذه الرحلة أجمل من رصد المشاعر التي اضطربت في أعماقه وهو يغادر المدينة عائداً إلى دياره . إذ نلمحه عبر ما كتبه خارجاً من الحرم النبوي الشريف بعد صلاة ظهر يوم الاثنين السابع من المحرم عام ١٠٤٢هـ ، تحفه كآبة الفراق ، فيما هو يتلفت بين فينة وأخرى إلى الحرم مدفوعاً بأشواقه التي تبدت عبر كثير من المقاطع الشعرية المعبرة عن الحنين

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والتأسف على الفراق جاءت موزعة على ما يربو على أربع صفحاتٍ متتابعة من الرحلة .

ولعل مما زاد في وطأة الوداع على نفس القيسي خروج أهل المدينة كما يصف « مشيعين لنا كباراً وصغاراً ، باكين متحسرين على انفصالنا عنهم بعد الألفة [ألفة] الأيام القلائل ، وخوفاً علينا من غوائل الطريق لأننا شرذمة قليلة ، وعصابة يسيرة »[1] . لقد جعلت هذه الألفة والمشاعر الصادقة التي أظهرها أهل المدينة لمن لم يُقِم بين ظهرانيهم غير أيام قليلة جداً ، جعلت الفراق أصعب احتمالاً ، وأشد مضاضة ؛ لكن ذلك لم يَحُل بين الركب وبين مواصلة سيره مغادراً المدينة ليحط في أول مرحلة من مراحله في آبار علي ، حيث اجتمع المغاربة وتزود الركب بالماء ثم تخلّوا عن الديار :

وجاءت جيوش البين يقدمها القضا فينثر شملاً بالحجاز نظمناه

(١) الرحلة : ١٢٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة